الباب الرابع

شوقى الإنسان فى الوصف

يختلف الشعراء فى نظرتهم إلى ما يشاهدون ، وتأثرهم بما يقع لهم أو لغيرهم كما يختلفون فى وسائل التعبير اللفظى والمعنوى. بل إن منهم من لايترك حدثا من الأحداث على نفسه إلا بقدر ما تتركه فراشة على براعم الأزهار. حيث تكون أذهانهم شاردة فى آفاق أخرى بعيدة عما يشاهدون . فيصرفهم هذا الانشغال عما يمر بهم أو يمرون به ، وكل فى فلك يسبحون .

والشاعر الإنسان شوقى ، تخترق بصيرته الحجب ، وتغوص إلى أعماق الأحداث لتصل إلى أسبابها وتربط مظهرها ومخبرها ، ولا تترك شاردة أو واردة إلا وأضفت عليها من شاعريتها ما يظهرها فى ثوب باهر اللألاء رقيق الحواشى ، فريد المعنى والمبنى .

بل إن شعر المناسبات الذى يعيب النقاد على ناظميه انصرافهم إليه ، لا يخلو من طرافة ورونق وطلاوة ومرح يقتلع الهم ويثير البهجة والأنس . فقد مدح المتنبى أميراً يدعى النجدى المتوكل ، فأهداه هذا الممدوح فرساً

توفيت فى اليوم التالى لإهدائها ، مما دعا المتنبى إلى أن يقول فيها موجهاً الخطاب للأمير :

أهديتنى أعجوبة هى فى العجائب نادره
فرس كأن هبوبه وشك الرياح الطائره
فى ليلة قطع المسافة من هنا للآخره

* * *

وقد يمر شاعر فوق جسر البوسفور (جلطه) الذى يربط بين إستانبول القديمة وإستانبول الحديثة ، فلا يثير شعوره وخياله سوى فزع مؤقت من اهتزاز الكوبرى من فرط قدمه وتركه بلا إصلاح ، ثم يمضى إلى حال سبيله . وقد سبقت الإشارة إلى هذه القصيدة ولكننا هنا نذكرها بكل ملابساتها .

فالشاعر شوقى ، قد تجسدت أمام عينيه ، وملأت مشاعره أحاسيس ورؤى ألهمته قصيدة (جسر البوسفور) التى حوت فوق التهكم الطريف ، غمزة إلى ما وصل إليه الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) من سلطة وصولة صرفته عن أن يأمر بإصلاحات تبقى على هذا الجسر الوحيد الذى يربط بين إستانبول القديمة والحديثة ، كما يغمز فى قصيدته إلى ما بلغه السلطان عبد الحميد من قلة حيلة ، مثلما مر على المعتمد فى آخر أيام الدولة العباسية ، بعد أن استشرى سلطان المماليك حتى دعاه ذلك إلى أن يقول :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شىء فى يديه

والمعتمد هو أبو المعتضد الذى تزوج من قطر الندى ابنه خمارويه سلطان مصر. فأراد شوقى فى لماحية تعز على سواه ، أن يأتى فى ختام قصيدته عن الجسر، بهذين البيتين على لسان المعتمد ، وكأنهما يصفان حال الخليفة عبد الحميد في نهاية حكمه الذى شاع فى أرجاء إمبراطوريته الفساد والتفكك . نتيجة توزع السلطة بين معاونيه وتنافسهم وإصغائه لمستشارى السوء من حوله .

وقد اهتم السلطان عبد الحميد بهذه القصيدة ، وطلبها وقرأها باهتمام.

وفيها يقول شوقى :

أمير المؤمنين رأيت جسراً ... أمر على الصراط ولا عليه
له خشب يجوع السوس فيه ... وتمضى الفأر لا تأوى إليه
ولا يتكلف المنشار فيه ... سوى مر الفطيم بساعديه
وكم قد جاهد الحيوان فيه ... وخلف فى الهزيمة حافريه
وأسمج منه فى عينى (جباة) ... تراهم وسطه وبجانبيه
إذا لاقيت واحدهم تصدى ... كعفريت يشير براحتيه
ويمشى (الصدر) فيه كل يوم ... بموكبه السنى وحارسيه
ولكن لا يمر عليه إلا ... كما مرت يداه بعارضيه
ومن عجب هو الجسر المعلى ... على البوسفور يجمع شاطئيه
يفيد حكومة السلطان مالا ... ويعطيها الغنى من معدنيه
يجود العابرون عليه هذا ... بعشرته وذاك بعشرتيه
وغاية أمره أنا سمعنا ... لسان الحال ينشدنا لديه

« أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعاً عليه »
« وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شىء فى يديه »

* * *

ولعلكم تنظرون معى إلى مواقف شوقى من الأحداث الجارية ، ومبلغ همه واهتمامه بتسجيلها ووصف مبعثها وأثرها وخطر أمرها . إنه يصدر فى ذلك عن طبيعته الإنسانية ، وعن حدبه على كل أثر وذى أثر تكون يده هى الممدودة للأخذ بما يصلح أمره ويشيد بذكره وخيره .

كانت مصر ترزح منذ الاحتلال البريطانى والحماية التى فرضها عام ١٩١٤ تحت وطأة الاستعمار العسكرى والاقتصادى .

وحدث أن قام فتية أحرار عزهم أن يروا وطنهم قد أحاطت به كل هذه المهانات والإذلال ، وشرعوا هممهم واستلوها من غمدها ، وتنادوا بإسقاط التواكل عن نفوسهم وتقدموا بمشروع مدروس مجهز للتنفيذ ، يستهدف إنشاء بنك مصر وما يستتبعه من شركات تستثمر أموال المصريين ويكون خيرها لبلدهم ولهم لا للغريب المستعمر .

وكان فى طليعة هؤلاء الوطنيين الأباة ، المغفور له طلعت حرب باشا الذى بنى مع أعوانه اقتصاد مصر الذى كان هو الدعامة للاستقلال والدعوة إلى التحرر ، وانتشرت شركات بنك مصر حتى بلغت العشرات ، وأغنت مصر والمصريين عن الاعتماد على مصنوعات الغرب .

هذه الوقفة من شوقى واكبت هذا العزم الحديد ، وأقيم فى دار الأوبرا حفل لهذه المناسبة ، ألقيت فيه قصيدة شوقى (بنك مصر) ، التى وصف فيها

ما كانت وما زالت تؤديه هذه المؤسسة من خير عم الوادى وأتى ثماره .

قف بالممالك وانظر دولة المال واذكر رجالا أدالوها بإجمال
وانقل ركاب القوافى فى جوانبها لا فى جوانب رسم المنزل البالى

ثم يمضى ليقول :

شراة مصر عهدنا كم إذا بسطت يد الدعاء سراعاً غير بخال
هانوا الرجال وهانوا المال واحتشدوا رأيا لرأى ومثقالاً لمثقال
هذا هو الحجر الدرى بينكمو فابنوا بناء قريش بيتها العالى
دار إذا نزلت فيه ودائعكم أودعتم الحب أرضاً ذات إغلال
آمال مصر إليها طالما طمحت هل تبخلون على مصر بآمال ؟
فابنوا على بركات الله واغتنموا ما هيأ الله من حظ وإقبال

* * *

وليس أبلغ من شعر تثيره فى النفس ذكريات حب لوطن حمل له فى قلبه وجوانحه ما لم يحمله له شاعر من قبل ، لقد عاب ناقدو شوقى عليه أنه موزع الانتماء ، فهو من أصل تركى جركسى يونانى عربى الموطن ، ولكنه ولد وولد أهله وأبناؤه على أرض هذا الوطن الذى أحبه حباً تلحظونه منبثاً فى معظم قصائد شعره ، إنه يسجل كل ما يحدث لهذا البلد من أحداث يقف إلى جانبها محذراً حيناً وناصحاً حيناً ، وفرحاً بما نال من عز أو آسياً إذا ما أصابه جرح يكون هو من أكثر المتألمين له النائحين من وقع ألمه على نفسه ومشاعره .

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى ، وكان هو فى خدمة الخديو عباس

وشاعره ، رأت السلطة البريطانية المتحكمة آنذاك فى أقدار مصر ، أن تبعده عنها ، لأن هذه السلطة تعلم أن قصيدة من شعر شوقى تفعل أكثر مما تفعل القنابل والرصاص .

وقد قبل وهو يكتم فى نفسه حسرة مأتاها بُعْده عن مآلفه وظلاله وخلانه وأخدانه ، ورضخ لأمر القوة ، واختار إسبانيا مكاناً ينفى إليه ، وهو مكان كان للعرب فيه وما تزال آثار تنطق بعزهم ومجدهم التليد . ورحل مع عائلته حتى يقضى الله أمرًا .

واستقر به المقام ، وأخذ الحنين يزحف إلى نفس شاعر ملء جوانحه حس مرهف . عارم الشوق إذا أحب . حارق الأضلاع إذا توله فى حب من أحب . فكيف والشاعر شوقى الإنسان الذى تفيض جوانحه بالشوق إلى مصر والحنين إليها .

وهكذا نرى من هذه الملابسات ، كيف نظم أندلسيته ، وكيف كانت مشاعره نحو مصر ونيل مصر وإخوانه فى مصر وظمؤه إلى كل ما تحمله أرض مصر ، والقصيدة تقع فى أكثر من مائة بيت نحس وقدة نفسه فى ثنايا هذا الشعر البالغ الحساسية والحنين :

يا نائح (الطالح)[1] أشباه عوادينا ... نشجى لواديك أم نأسى لوادينا ؟
ماذا تقص علينا غير أن يداً ... قصت جناحك جالت فى حواشينا
رمى بنا البين أيكاً غير سامرنا ... أخا الغريب وظلا غير نادينا

(١) الطلح داد بظاهر أشبيليه .

وإن يك الجنس يا بن (الطلح) فرقنا   إن المصائب يجمعن المصابينا

ثم يمضي ليقول :

رسم وقفنا على رسم الوفاء له   نجيش بالدمع والإجلال يثنينا
لفتية لا تنال الأرض أدمعهم   ولا مفارقهم إلا مصلينا[1]
لو لم يسودوا بدين فيه منبهة   للناس كانت لهم أخلاقهم دينا
لم نسر من حرم إلا إلى حرم   كالخمر من (بابل) سارت لدارينا[2]
كادت عيون قوافينا تحركه   وكدن يوقظن فى الترب السلاطينا[3]
لكن مصر وإن أغضت على مقة   عين من الخلد بالكافور تسقينا
على جوانبها رفت تمائمنا   وحول حافاتها قامت رواقينا
ملاعب مرحت فيها مآربنا   وأربع أنست فيها أمانينا
بنّا فلم نخل من روح يراوحنا   من بر مصر وريحان يغادينا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا   باسمه ذهبت فى اليم تلقينا[4]
ومصر كالكرم ذى الإحسان : فاكهة   لحاضرين وأكواب لبادينا

---

(١) يقصد ملوك الأندلس .

(٢) بابل ودارينا : مدينتان اشتهرتا من قديم بجودة الخمر .

(٣) يقصد سلاطين وملوك الأندلس .

(٤) شبه مصر بأم موسى حين ألقته فى اليم صبيًّا وسألت الله أن يكفله .